



ما يصح قوله، نفي المفاجأة عن الخطوة الروسية الأخيرة، ومما يجب قوله، أن التمهيد للنقطة العسكرية الروسية تراكمت مقدماته منذ التلعثم السياسي الدولي الأول الذي ظل سمة غالبة على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، فكان ذلك كفياً بحسب كل سياسة تدخلية وازنة إلى جانب الاعتراف السوري، الذي صار فصائل اعترافات لاحقاً، وكان التلعثم محفزاً لداعمي النظام وللنظام ذاته، فأدلى الجميع ببياناتهم القمعية الفصيحة.

روسيا اليوم تكرس حقها بالمطالبة بحصة نفوذ في سوريا بعد أن لامست حدود الحصص ترسيناً آنياً على أرض الواقع، قد لا تبدل في صورته كثيراً، أو على نحو دراميكي ريش الترسيم النهائي وأقلامه. اختيار عنوان تعزيز التدخل في سوريا والدخول المكثف على خطوطه، لا يخرج على العنوان الذي بات «قميص عثمان» كل الفاعلين في الشأن السوري، هكذا ضمن الروسي، ويضمن حتى إشعار آخر شرعية النشاط القتالي المباشر تحت لواء مقاتلة الإرهاب الناشط فوق الأرض السورية، وفي طليعته تنظيم الدولة الإسلامية «داعش»، الذي نما برعاية التخلّي السياسي العام، وبمؤازرة النظام المغلق والعصي على كل إصلاح.

وما أثير من كلام خجول على ألسنة بعض مسؤولي قوى التحالف الدولي، لا يتعدى تسجيل الموقف الذي تبدو غايته الأولى رسم حدود «الاندفاعة» الروسية، وهو بذلك بعيد عن مسألة رفض الدور مثلاً هو بعيد عن مساءلته أو عدم تحبيذه. رأية

التحالف في الموضوع الإرهابي وارفة الظل إلى المدى الذي يحيط بقامة القوات الروسية ويمدّ طيران طائراتها.

إنّا، ومن خارج الاستئناف أو الحيرة أو الترحيب، جاء الروسي ليجلس إلى الطاولة كضيف وصلاته دعوة موضوعية، أي من طريق غير مباشر فرضت التطورات العامة مساره حتى صار مباشراً. من العادي، عند افتتاح الكلام بالتصريح، أن يعلن الروسي أنه هنا لدعم النظام السوري الذي ما زال موجوداً في الميدان وفي مؤسسات الحكم التي ما زالت شرعية. لا يحيد التصريح الروسي عن الجادة عندما يصنف النظام ورأسه كطرف من أطراف الحوار حول المسألة السورية، بل إن كل ما يفعله هو التأكيد على عدم قدرة أي من أطراف الصراع على حسم وجهة الميدان في صالحه، حسماً واضحاً بينما لا لبس فيه. حالة عدم القدرة يتقاسمها أهل الفعل في الداخل، وأهل الدعم من الخارج، ولأن الأمر كذلك فلا حرج لدى الروسي إذا ما اعتبر البعض أن ما تبقى من جيش نظامي سوري صار أقرب إلى الميليشيا لناحية العديد والممارسة والانتهاكات، لكنه ما زال الميليشيا الأفضل تنظيمياً، والتي تخضع لتراتبية انضباط وولاء لا لبس فيها.

وضعية النظام بحالته الأهلية، جعلته من جهة فاقداً للأهمية الوطنية، أي لمسؤوليته عن عموم الأرض وعموم الشعب، وجعلته من جهة أخرى رهينة المانحين والداعمين الذين بات وجود النظام، أو رأسه بالأحرى، ضرورة سياسية لهم، وبات الوجود فقط هو كل ما يرجوه النظام من هؤلاء المانحين والداعمين. مصلحة ظرفية مشتركة تجمع بين النظام وداعميه إلى أبد قد لا يطول طويلاً، لكن الطريق إليه معبد بالتقابلات والتفاهمات وتبادل الرسائل ... والودائع أيضاً.

على أكثر من قراءة صار النظام السوري، ممثلاً برأسه وبالخلية الضيقة المتحكم به، وديعة لدى أكثر من طرف داعم. يتوزع الداعمون على درجات ومستويات، والتصنيف المعتمد لكل منهم لدى التحالف الدولي الذي يحارب الإرهاب، يساعد على تفسير التأثير والنفوذ المستقبلي لكل طرف داعم على حدة. لعل الروسي لا يستثير حساسية سورية ولا حساسية عربية ولا توجساً غريباً.

الروسي اليوم ليس الاتحاد السوفيتي، أي ليس الاشتراكية ولا الشيوعية، والعصر ليس عصر الحرب الباردة التي شهدت صراع الأفكار والسباق إلى السيطرة على مناطق النفوذ، بل لعل الأقرب إلى الواقع أن ما يحصل هو نوع من «العولمة العسكرية» التي يتخلى ضمنها البلد الأكثر تطوراً عن تصنيع بعض المنتجات، فيعهد بها لغيره، وعليه ربما يعهد التحالف الدولي إلى شريك يسعى إلى حصة في العولمة العسكرية، مع ما يلحقها من ميزات اقتصادية وسياسية تفاضلية، وهذا الأمر يلقى رغبة وحماسة لدى الروسي الذي ما زال يتمسك، ربما بالحنين إلى لعب دور الدولة العظمى.

لا تتحدث روسيا العربية. لا تعمل روسيا بوحد من أحكام المذاهب الخمسة الكبرى. لهذا وذاك، لا تستطيع روسيا أن تكون داخلاً ضمن الداخل العربي. هذا الأمر الأخير تستطيعه إيران، لذلك قد نجد التحالف مفتوحاً ولو مداوراً للشريك الروسي، وقد يظل غير مفتوح في شكل واسع أمام الطامح الإيراني، وقد يلقى الهوى الروسي هوى لدى أبناء الصاد، أولئك الذين لم تساعدهم طهران على تجاوز «صعوبة تعلم» اللغة الفارسية. من يدري؟!

المصادر: